

فجأة أمطرت السماء جثثاً بشرية.. نظر سكان مدينة "كافا" الأوكرانية القديمة إلى سماءهم في ذلك اليوم نظرة من الطراز الذي تنتظره إلى الهول ثم تدير رأسك وتفر هارباً.. لقد كانت السماء تمطر جثثاً على رؤوسهم.. نظرت أنت إلى المشهد بتمعن.. حقاً إنها جثث تتساقط.. ولكنك ترى بين هذه الجثث كيانات معلقاً في السماء.. لا تدري ما هو بالضبط.. عباءة سوداء يهز الهواء أطرافها كما ترى في مشاهد الأساطير.. الرأس يختفي في الظلام لأن العباءة تغطي الرأس أيضاً.. لكن الوجه واضح.. واضح باستفزاز.. الوجه كأنه قناع أبيض له ملامح ساخرة.. كان هذا الكيان معلقاً في الهواء تتطاير من ورائه جثث ترمى بسرعة هائلة فوق أسوار مدينة كافا لتمطر على السكان الذين يجرون هنا وهناك غير فاهمين لأي شيء.

حتى تفهم هذا المشهد ينبغي أن تعرف أولاً أن مدينة كافا في هذه اللحظة كانت تغلق أسوارها على نفسها لأن المغول كانوا خارج الأسوار يحاصرون المدينة.. أيامها كان الطاعون الأسود قد بدأ ينتشر في آسيا.. وبدأ يصيب الجنود المغول الذين يحاصرون مدينة كافا.. وتحول غضب المغول إلى أول حرب بيولوجية في التاريخ.. وضعوا جثث جنودهم الميتين بالطاعون على المجانيق وأطلقوها تبعاً لتعبير فوق أسوار مدينة كافا وتسقط وسط أهلها الذين لم يفهموا الأمر في البداية.. ثم فهموه لما مات منهم عدد ضخم بالطاعون في الأيام التالية.

إنه "ماستيم".. ذلك الكيان الأسود الساخر الذي رأيته يطير وسط الجثث.. وهأنت تراه مرة أخرى يطير.. ولكن في سماء أخرى.. في أوروبا هذه المرة وتحديداً في مدينة بيزانسون الفرنسية.. لكنه هذه المرة لم يكن ساخراً.. بل كان حزينا.. القناع الساخر الذي كان وكأنه يرتديه أصبح الآن قناعاً حزينا.. كان يطير في السماء ناظراً إلى مشهدٍ ربما هو الذي أحزنه.. كان هناك نفر كثير من رجال عراة الأقدام يلبسون ملابس من أكياس الخيش ويمسكون سياطاً يضربون بها

اليهود في الشوارع وبداخل البيوت.. يضربونهم حتى سالت الدماء من جلودهم.. وحتى فارقت أرواحهم أجسادهم.

كان حاملي السياط مسيحيين كاثوليكين أوروبيين.. لماذا يضربون اليهود بالسياط؟ سأخبرك.. لما هرب الناس من مدينة كafa بعد أن رماهم المغول بوابل من الجثث الطاعونية.. سكن الهاربون من المدينة في مختلف مدن أوروبا.. وحملوا معهم الطاعون إلى تلك المدن جميعها.. ولم تمضِ سنة واحدة إلا وعدد الوفيات قد زاد عن العشرة ملايين إنسان أوروبي.. ولم تنتهِ السنة الثانية إلا وقد تضاعف هذا العدد ليصبح خمسة وعشرين مليون إنساناً.. ثلث سكان أوروبا كلهم ماتوا.. كان من أصابه الطاعون يموت.. وكل من اختلط به ولو مرة يموت.. ومن حمله إلى القبر يموت.. كانت أياماً رهيبة.

وفقد الناس إيمانهم بالطب وبالرب والكنيسة وبكل شيء.. وانتشرت إشاعة لم يستطع أن يسيطر عليها أحد.. إشاعة تقول إن اليهود هم سبب الطاعون.. فهم سمموا الآبار والأنهار الأوروبية كلها بسبب كرههم للمسيحيين الكاثوليك الذين كانوا يضطهدونهم في ذلك الزمن.. وهجم الناس على اليهود هجوم الأكلة على قصعتها.. وأول من هجم على اليهود نفر من الناس يحملون السياط.. كان ذوي السياط هؤلاء قبل الإشاعة يمشون في الطرقات في مسيرات أسبوعية ويضربون أنفسهم حتى تخرج دماؤهم منهم.. عل الإله يخفف عن الناس أمر ذلك الوباء الذي قتل ثلث سكان أوروبا دفعة واحدة.. وبعد الإشاعة.. توقف هؤلاء عن ضرب أنفسهم وهجموا على اليهود بكل القسوة والغل الساكن في قلوبهم.

إن "ماستيم" يحزن وجهه كلما حدث اضطهاد لليهود في أي ناحية من نواحي الأرض.. إنه يذكر كيف كان حزيناً لما جُمع اليهود وُبطوا في ساحات مدينة نوريش الإنجليزية وخرقوا أحياء.. كان ذلك لأن المسيحيين اتهموهم بأنهم قاموا بالتضحية بالطفل المسيحي "ويليام" ليستخدموا دماؤه في طقوس عيد

الفصح اليهودي.. وقد تكررت تلك التهمة مرات ومرات في أوروبا وفي كل مرة يجمع اليهود فيها ويُقتلون بدم بارد.

ولازال "ماستيم" يتذكر حزنه أيام الحملة الصليبية الأولى.. لما فكر المسيحيون قليلاً وقالوا لأنفسهم.. نحن سنسافر عبر الأرض لقتال أعداء الصليب.. أليس أولى أن نقتل أعداء الصليب الذين يعيشون بيننا.. اليهود هم قتلة المسيح وأنصاره.. وهجموا على اليهود هجمة رجل واحد في مدينة مينز الألمانية وقتلوا ألفاً منهم دفعة واحدة.. وظلوا يقتلون فيهم حتى بردت دماؤهم وهدأت قلوبهم.

وبقى وجه "ماستيم" حزيناً وهو يشاهد ألمانيا تطرد اليهود ثم تبعتها إنجلترا.. ثم فرنسا وإيطاليا والنمسا وسويسرا والمجر وهولندا.. ولم يجد اليهود لهم سكناً في الأرض سوى في الأندلس.. التي كان المسلمون يحكمونها بالعدل.. واستقبلهم المسلمون وأكرموا وفادتهم وأعطوهم الأرض والسكن.. وحرية ممارسة الشعائر بعد أن كانوا يمارسونها في غرفهم المغلقة خوفاً وذعراً.. حينها كنت ترى الشيطان اليهودي "ماستيم" يطير فوق الأرض الأندلسية وعلى وجهه ما يشبه الابتسامة.. ولم تكن ساخرة هذه المرة بل كانت سعيدة.

وفجأة غزا الصليبيون الأندلس واحتلّوها.. وطار "ماستيم" هذه المرة بوجه خائفٍ مما سيحدث لليهود.. ويبدو أن خوفه كان في محله.. فقد أجبر الصليبيون كل سكان الأندلس المسلمين أو اليهود على التنصر أو مغادرة البلاد.. وبالنسبة لمن تنصّروا فلم يتركهم الصليبيون في حالهم.. بل عقدت لهم حكومة إسبانيا محاكم تدعى محاكم التفتيش.. يُعَدَّم فيها كل من يشتبه بأنه تنصّر ظاهرياً بينما هو مسلم أو يهودي في الخفاء.. وهاجر كل من رفض التنصر.. وبالنسبة لليهود.. فلم يجدوا لهم مكاناً يؤويهم بعد هروبهم من الأندلس إلا مكاناً واحداً.. أراضي الدولة العثمانية الواسعة.. ومرة أخرى استقبلهم المسلمون وأكرمهم.. أدخلهم السلطان العثماني "سليمان القانوني" وأكرم وفادتهم..

ولكنه اشترط عليهم شرطاً صارماً.. أن يسكنوا في أي أرض من أراضي الدولة العثمانية شاءوا.. عدا أرض واحدة محرّم عليهم دخولها والسكن فيها.. أرض فلسطين.

ثم توقف الشيطان "ماستيم" لوهلة في السماء.. وأدار وجهه ناظراً إلى مشهد أثار اهتمامه.. كان ينظر إلى شيطان آخر اقتحم أجواء الدولة العثمانية وتحديداً في اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية.. ذلك الشيطان كان مألوفاً.. إنه "سيرينت" الأفعى الفاوية.. يبدو أن دور بلاد العرب قد أتي.. وحان أوان إسقاطها.. كان "سيرينت" يخترق الأجواء متجهاً إلى قصر السلطان "سليمان القانوني" نفسه.. ودخل "سيرينت" إلى القصر.. دخل إلى التوب كابي العثماني.. ولم ينتظر الشيطان اليهودي "ماستيم" ثانية أخرى.. لقد دخل وراءه.

دخل "ماستيم" إلى القصر العثماني بسرعة ليفاجئه مشهد غريب.. كانت السلطنة "ماه دوران" زوجة الخليفة تتعارك بالأيدي عراكاً عنيفاً جداً مع جارية تدعى "روكسلانا".. كانت "روكسلانا" هذه فاتنة تبدو وكأنها الفتنة مجسدة في أنثى.. وكان يبدو أنها تخسر هذا العراك.. فقد أدمت السلطنة وجهها.. وتدخلت أم الخليفة وفشت هذا العراك الحاد.. وفجأة دخل الخليفة "سليمان القانوني" لترتمي في حضنه الفاتنة "روكسلانا" باكية شاكية مشيرة بيدها الجميلة إلى جروح رقبتها ووجهها.. نظر السلطان بغضب شديد إلى السلطنة "ماه دوران" وأصدر عليها أمراً قاسياً نوعاً ما.. لقد نفى السلطنة "ماه دوران" إلى قصر مانيسا.. نظر الشيطان "ماستيم" إلى الفاتنة "روكسلانا" التي كانت تمسك بالخليفة في ذلة ومسكنة وعيناها تبسمان من ورائه ابتسامة ساخرة لم يلحظها أحد.. ابتسامة تحكي الكثير.

نظر الشيطان "ماستيم" إلى الأفعى "سيرينت" الذي كان في تلك اللحظة فاتحاً فكيه في توخّش ساخر تجيده الأفاعي.. ومن نظرة شيطان إلى شيطان فهم "ماستيم" كل شيء.. لقد كانت الجارية الفاتنة "روكسلانا" ساحرة يهودية

أخذت كجارية من جزيرة القرم وأهداها تثار القرم إلى السلطان "سليمان القانوني".. ومن نظرة أخرى إلى الأفعى "سيرينت" عرف "ماستيم" أن أخذها كجارية لم يكن صدفة بل كانت مرسلة في مهمة محددة.. محاولة التأثير على أقوى سلطان عثماني بالسحر.. حانت من "ماستيم" نظرة إلى الخليفة السلطان "سليمان القانوني".. كان هذا هو السلطان العثماني الذي اتسعت في عهده الدولة العثمانية إلى أقصى اتساع لها.. قويًا كان.. عظيمًا.. يستحيل إغواؤه أو التأثير عليه.. فلم يجد اليهود خيرًا من السحر.. ولم يختاروا ساحرًا عجوزًا بل أحسنوا الاختيار كهاتهم.. "روكسلانا" أكثر الساحرات التي عرفهن التاريخ فتنةً وجمالاً.. ساحرة كانت تنام بين أحضان الخليفة معظم الليالي السبع في الأسبوع.

ضم الشيطان "ماستيم" قبضتيه الاثنتين وأسند عليهما ذهنه.. وبدأ يشاهد وعلى قناعه ملامح ساخرة.. "روكسلانا" سحرت قلب الخليفة بجمالها قبل أن تسحره بتعاويذها.. وطلبت منه الزواج.. ورغم أن هذا كان ممنوعًا أن يتزوج الخليفة جاريته إلا أن السلطان "سليمان القانوني" ولأول مرة تزوج جاريته وكسر القاعدة.. لم يكن السلطان يملك أن يرفض.. فنحن نتحدث عن سحر الهوى والغرام والمحبة وهذا من أشد أنواع السحر.. كانت "روكسلانا" تقيم في قصر الحريم أو الحرملك.. ولم تكن تحب ذلك.. فصحا الجميع ذات يوم على حريق هدم أحد جدران الحرملك وأصبحت الحريم تجري و"روكسلانا" تهرع إلى حضن السلطان وتختبئ وترجوه أن ينقلها لتعيش معه في القصر.. وبالفعل نقلها ولكن وضعها في جناح مستقل مجاور لجناحه.. فلم يعجبها هذا.. فأمرت ببناء باب بين جناحها وجناح السلطان فاندمج الجناح والجناح ليصبحا جناحًا واحدًا.. وبهذا أصبحت هي والخليفة لا يفترقان أغلب اليوم.. ولقد أحببت ذلك.. وكانت راضية.. وسعيدة.

ثم أصبح السلطان "سليمان القانوني" يقوم بأمور عجيبة جداً لا يقوم بها من له تاريخ كتاريخه.. ففجأة أمر السلطان بإعدام مفتي الدولة "إبراهيم باشا" وصديق صباه.. والإعدام في الدولة العثمانية كان يتم خنقاً بخيط من حرير أحمر.. نظر "ماستيم" إلى الأفعى "سيربنت" نظرة متسائلة.. فأشار "سيربنت" إلى "روكسلانا".. كانت مكيدة دبرتها.. مكيدة شككت السلطان في صديق صباه المفتي الأعظم.. فعلت ذلك لأن هذا المفتي كان يؤيد أن يتولى الخلافة بعد "سليمان القانوني" ابنه المجاهد العظيم "مصطفى".. ولم تكن تحب ذلك.. كانت تريد الخلافة لابنها هي من السلطان.. ابنها الخامل المعتوه "سليم".

طار الشيطان "ماستيم" ليلقي نظرة على "سليم" هذا.. فوجده في أحضان "راشيل" جارية يهودية إسبانية أهدتها "روكسلانا" إليه.. كان كثير السكر لا يخرج من مخدعه مع جاريته أبداً إلا إذا استدعاه السلطان "سليمان".. ظهر على قناع "ماستيم" بعض السخرية.. ثم طار عائداً إلى الساحرة.. إلى "روكسلانا".

إن "سليمان القانوني" مُصر على أن يتولى "مصطفى" ابنه الحكم من بعده.. لكنها لم تكن تحب ذلك.. وفي ذات يوم كان "مصطفى" في بلاد فارس.. وهانحن نراه يدخل في خيمة يفترض أن يقابل فيها أبوه الخليفة.. وفور أن دخل "مصطفى" إلى الخيمة هجم عليه خمسة رجال ملثمين لا ترك من وجوههم سوك عيون عابسة.. كانوا يخنقونه بخيط من حرير.. وبينما هو يقاوم بكل ما وهبه الله من قوة وعنفوان إذ به يرك والده الخليفة "سليمان القانوني" يقف أمام المشهد ناظراً في صرامة.. إنه يشهد إعدام ولده.. فلذة كبده.. لقد التفت عليه الأفعى حتى لم تترك في روحه مكاناً لأي شيء سوك السحر.. السحر الأسود.. أقنعت الفاتنة "روكسلانا" والمفتي الذي وضعته هي بنفسها بدلاً من المفتي المقتول.. أقنעה أن "مصطفى" ولده يدبر مكيدة للانقلاب عليه وأخذ الحكم منه.. وبالنسبة لـ "سليمان القانوني" كان هذا يعني الخيانة.. وصرامته في تنفيذ القانون التي استقى منها اسمه لم تدع له مجالاً للتفكير في مشاعر الأبوة..

وهاهو "مصطفى" ينهار بين أيدي الملتئمين وتخور قواه ويسقط على الأرض جثة هامدة بلا روح.. ثم أرسلت "روكسلانا" من يقتل ابنه الرضيع في بورصة حتى ينقطع هذا النسب تمامًا.

لم يكن الطريق خاليًا بعد لابن الخامل "سليم".. كان هناك للسلطان ابن آخر.. ابن من "روكسلانا".. ولكنه مقاتل صنديد.. المشكلة أنها لم تكن تحب ذلك.. كان اسمه "بايزيد".. كادت الساحرة لابنها مكائدها حتى جعلته يتمرد على السلطان.. وكادت الساحرة مكائدها عند السلطان حتى جعلته يأمر باللاحق به وإعدامه هو الآخر بتهمة الخيانة العظمى.. وكان هذا ثاني ابن للسلطان يأمر بإعدامه.. أي سحر أسود لعين هذا.. بل إن اللعنة كلها كانت تتحدث عن نفسها لحظة الإعدام.. الأمير "بايزيد" يقف في الغابة وحوله أربعة أولاد صفار هُم أطفاله وأحفاد السلطان.. وحولهم نفر كثير من جنود السلطان يحاصرونهم في غلٍّ.. قتلوا "بايزيد" ثم قتلوا أولاده بدم بارد.. قتلوههم وهم يعرفون تمامًا أن السلطان سيسعد بهذا وسيكافئهم على قتل ابنه الخائن.. ولأحفاده الذين لا تب لهم.. تحول قناع "ماستيم" من طور الابتسامة الساخرة إلى طور الضحكة الساخرة المتشفية.. وطار عائداً إلى الساحرة "روكسلانا" مرة أخرى.

الآن فقط صار الطريق إلى كرسي الخلافة خاليًا.. ولم يعد من أولاد السلطان حيًا سوى "سليم" الذي استحق عن جدارة لقب التتبل.. ظل "ماستيم" يطير حوالي الساحرة اليهودية "روكسلانا" حتى ماتت بين أحضان السلطان "سليمان القانوني".. ماتت بعد أن أنجزت مهمتها على أكمل وجه ممكن.. ثم مات سليمان القانوني.. وصعد ابنه التتبل "سليم" إلى العرش.. لم يتغير شيء من حال "سليم".. ظل سكيرًا عريذاً.. كان "ماستيم" سعيداً.. ليس بسبب غباء الخليفة الجديد ولكن بسبب ذكاء زوجته.. "راشيل" تلك الجارية اليهودية الإسبانية التي كان لا يفادر مخدعها ولا زال.. لقد مشت على خطى معلمتها "روكسلانا" وأصبحت تدير زوجها.. بل تدير الدولة العثمانية كاملة.. كانت هي

الحاكمة الفعلية.. ليس هذا فقط.. بل إن والدها اليهودي "جوزيف ناسي" كان خليل السلطان "سليم" ومستشاره في أمور الخلافة ويقضي معه أغلب الوقت في السكر والعريضة.. الدولة العثمانية العظيمة الواسعة صارت تحكمها امرأة يهودية.. كذلك كان الحال في ذلك الزمن.. وكذلك كان قناع "ماستيم" منتشياً.. وأقنعة اليهود الذين أرسلوا "روكسلانا" و"راشيل" منتشياً.

توفي التتبل "سليم الثاني" وخلفه ابنه التتبل أيضاً "مراد الثالث".. كان يبدو أنها سلالة من التتابل قد بدأت تظهر.. ظلت "راشيل" تحكم الدولة من وراء الستار.. بل إن سلطتها قد تصاعدت أكثر لأن "مراد الثالث" هذا هو ابنها الفاشل.. وبدأت الدماء اليهودية تنخر في عظام الدولة العثمانية بإشراف الأفعى "سيرينت" والمراقبة المتشفية للشيطان "ماستيم".. وبدأ اليهود الذين نزحوا من الأندلس من قبل يرتعون ويلعبون في أرجاء الدولة العثمانية كما يحلو لهم.. ويرتقون قي المناصب الهامة كما يحلو لهم.. الأخطر أنهم بدأوا ينظرون إلى الأرض التي خرموا منها طويلاً ولأزالوا محرومين.. أرض فلسطين.. ونظر معهم الأفعى "سيرينت" بعينيه المشقوقتين.. والشيطان اليهودي "ماستيم" بقناعه الأبيض.

لم يُطل "ماستيم" المكوث في قصر الخلافة.. بل إنه طار فجأة إلى ساحة وسط مدينة اسطنبول.. كان مشهداً مهيباً ذلك الذي يحدث هناك.. رجل موضوعة قدماه في قالب من الطوب ومربوطة ذراعه ورقبته إلى القالب.. ويحيط به حوالي ألف متجمهر.. وحواله عسكر من عسكر السلطان.. رأى "ماستيم" الشيطان الأفعى "سيرينت" يلتف حول قالب الطوب مرتفعاً برأسه مقترباً بها من الرجل المقيّد.. كان ذلك المقيّد يدعى "ساباتاي زيفي".. وكان اليوم يوم إعدامه.. وكان يوماً مشهوداً كما هو واضح.

إن "ساباتاي زيفي" يهودي.. يتبعه ألف يهودي.. يسموه أتباعه المسيح المخلص.. أما هو فيخاطبهم مسمياً نفسه مسميات عديدة مثل ابن الإله البكر..

أو أبوكم يسرائيل.. بل إنه يقول أنا الرب إلهكم الأعلى.. وُلد بعد فترة اضطهاد اليهود في أوروبا.. وتربى وهو يسمع أحاديث اليهود عن قرب ظهور المسيح المخلص الذي وعدهم به الله.. والذي سيأتيهم ليخلصهم من عذابهم ويحكم بهم الأرض كافة.. دَرَس التلمود ودَرَس الكابالا.. ولما أصبح يافعاً خرج في اليهود يقول إنه المسيح المخلص.. وأنه لا قيام لهم في الأرض إلا بعد أن يدخلوا فلسطين فاتحين.

جمع حوله العشرات ثم المئات ثم الآلاف.. وجاء عام 1666.. ستة وستة وستة.. رقم الوحش كما يقول الإنجيل.. أعلن بين أتباعه اليهود أن الشيء الوحيد الذي يمنعهم من دخول فلسطين هو الدولة العثمانية الفاشمة.. دولة تغلبت جينات وزرائها العربية على الجينات اليهودية التي زرعها "روكسلانا" في دماء سلاطينها فأصبحوا من بعدها تتابِل السلطان.. رجال كانوا يصلحون ما يفسده السلاطين لو أفسدوا.. ويشدون على أيديهم لو أصلحوا.. يولونهم ويعزلونهم ويدبرون شؤون البلاد.. رجال شكلوا دولة واحدة قوية.. دولة لا بد أن نسقطها نحن اليهود.. فإما هذا وإما لا قيام لنا في هذه الدنيا أبداً.. خرج "ساباتاي" في عدة مظاهرات تطالب بإسقاط السلطان.. فما كان من السلطان إلا أن أمر بالقبض عليه وإعدامه في الساحة العامة.. وليشهد العالمان إزهاق روحه الخائنة.. وهاهو "ساباتاي زيفي" يركع وأطراقه مثبتة إلى قالب من الطوب.. ورجال من رجال السلطان الأشداء حوله يشمرون سواعدهم للنيل من رأسه.

وكان يبدو أن هناك مترجماً بجواره يحدثه بحديث ما قبل أن يعدم.. طار "ماستيم" ليستمع.. كان المترجم يقول لـ "ساباتاي" :

- لقد فقدت عقلك يا "ساباتاي".. ويبدو أن حماقتك ستودي بك إلى الجحيم.

نظر له "ساباتاي" وقال له :

- لا جدوى لهذا الحديث الآن يا هذا.

قال المترجم بلهجة من يقول أمراً خطيراً:

- اسمعني جيداً.. أنا يهودي مثلك.. ومؤمن بك وبدعوتك.. وإني أود أن أسوق لك اليوم فكرة تذكرك من الإعدام وتكسبك عند السلطان هيبة.. بل وتكون لك هبة وعطية من السلطان.

ظهرت الدهشة على وجه "ساباتاي" وقال للمترجم :

- أي فكرة هذه يا بني.. هل تهزأ بي؟

قال له المترجم بسرعة :

- أن تعلن إسلامك الآن وفي التو واللحظة وأنت تائب إلى الله.. وإلى دين المحمديين ارتاح قلبك.

- يبدو أنك تهزأ بي حقاً.. هل أنت يهودي حقاً يا هذا؟

- ليس هذا ما تظن أيها المسيح.. أنت ستقول هذا بلسانك وحده.. ولن يصدق على هذا قلبك.. وستنشر دعواك سرا بين أتباعك المخلصين.. وسنكيد للسلطان حتى نسقطه.. وسنعود معك إلى فلسطين لتقيم دولة الإله الموعودة هناك.

ضيق الأفعى "سيربنت" عينيه في سعادة أفعى.. ومثله فعل "ماستيم" في ملامح خبث يهودي.. ومثلهما فعل "ساباتاي".. وحدث ما اقترحه المترجم اليهودي بالحرف الواحد.. أعلن "ساباتاي زيفي" إسلامه على الملأ.. فغفى عنه السلطان.. وأعطى له عطية خمسين قطعة فضية شهرياً.. خرج "ساباتاي" حراً طليقاً.. وسمى نفسه "محمد افندي".. وأمر كل أتباعه أن يتحولوا إلى الإسلام كما تحول.. ويبتنوا اليهودية كما أبطن.. وأصبح هؤلاء يعرفون في الدلوة العثمانية باسم خاص.. يهود الدونمة.. أي اليهود التائبين العائدين إلى الله.. وانتشروا في أرجاء الدولة العثمانية ووصل بعضهم فيها إلى مناصب عالية وحساسة.

كان لكل واحد منهم اسمان.. اسم إسلامي يُظهره ويتعامل به مع الناس.. واسم يهودي يبطنه ويتعامل به مع من هم على شاكلته.. كانوا يقيمون كافة شعائرهم اليهودية خلف أبوابهم المغلقة.. ماعدا الامتناع عن العمل يوم السبت حتى لا يلفتوا الأنظار.. وابتدعوا فكرة الكتب الصغيرة التي يمكن إخفاؤها في الثياب.. كتب الجيب.. حتى يسهل عليهم إخفاؤها دائماً.. كانوا يهودا ذوي مذهب خاص بهم لا يشاركونهم فيه بقية اليهود.. شاعت بينهم الحفلات الإباحية التي يتبادلون فيها الزوجات.. ولهم عيد يُطفئون فيه الأنوار ويقعون على بعضهم البعض كالبهائم.. فإذا وُلد لهم مولود من جراء هذا العيد يكون في عقيدتهم مباركاً.. لم يكونوا يحرمون الزنا.. وانتشر بينهم بشكل رهيب زنا المحارم.. ينظرون إلى فلسطين على أنها أرض الميعاد.. ويستعجلون احتلالها حتى يجعلوا نبوءة التوراة.. المسيح المخلص الذي سينزل إليهم ويحكم بهم العالم من القدس.. ولحدوث هذا فهم لا ينتظرون نزوله مثل بقية اليهود وإنما سيسعون لتعجيل نزوله باحتلال فلسطين.. حتى يتسنى له أن يحكم العالم منها.. كان هؤلاء هم بذرة لشيء شديد البشاعة ظهر في السنين التالية.. شيء عُرف باسم كرية.. الصهيونية.

وبدأ قناع الشيطان اليهودي "ماستيم" يحمل ملامح مرعبة شديدة البشاعة.. وظل طائرًا في الأجواء يتابع الأحداث.. تم نفي "ساباتاي زيفي" إلى ألبانيا حيث مات هناك بالكوليرا.. ظل أتباعه يؤمنون بالفكرة رغم أن مسيحهم مات.. قالوا إنه صعد إلى السماء وأصبح ملاكاً.. وأنه سيعود لما تقوم دولتهم الموعودة في فلسطين.. كانوا ينظرون إلى فلسطين بنهم.. وظلت الدولة العثمانية تمنعهم منها.. زاد عدد الواصلين منهم إلى مناصب الدولة العثمانية الحساسة.. حتى أصبحوا قيادات في الجيش.. وهنا بدأوا يلعبون لعبة أخرى.. لعبة تدعى الاتحاد والترقي.

بعد مرور سنوات طوال، هرع "ماستيم" طائرًا إلى قصر الخلافة العثمانية الجديد المدعو قصر يلديز.. ودخل إلى حيث العرش.. وشهد هناك مشهدًا تاريخيًا.. الخليفة العثماني "عبد الحميد الثاني" واقفًا وجها لوجه مع زعيم ومؤسس الحركة الصهيونية "تيودور هرتزل".. كان "هرتزل يقول له:

- سيدي إن نحن حصلنا على فلسطين سندفع للدولة العثمانية الكثير.. نعلم أن الخلافة في أزمة مالية شديدة بعد الحروب العديدة.. نحن سنسوي لكم أوضاعكم المالية بدون قروض.. فقط نحن نريد فلسطين ملكًا لنا.
- لماذا تريدون فلسطين بالذات؟ إن بإمكانكم الاستقرار في أي مقاطعة عثمانية تشاءون.
- إن فلسطين يا سيدي هي المهد الأول لليهود.
- فلسطين لا تعتبر مهدًا لليهود فقط.. بل هي مهد لكافة الأديان.
- لكننا أول من سكنها أيها السلطان .
- كذبت.. سبقكم الفينيقيون والكنعانيون وغيرهم كثير.
- لكننا كنا أطول الأمم حكمًا لها.
- بل حكتموها أربعمئة سنة وحكمها المسلمون ثلاثة أضعاف مدتكم.. حكمناها ألف ومئتي سنة ولازلنا نحكمها وسنزال.
- أنتم تؤمنون بالتوراة ياسيدي.. وفيها وعد صريح لنا بالأرض المقدسة
- توراتكم ليست التوراة التي نؤمن بها.. وحتى في توراتكم المحرفة قتلتم إن الله وعدا المصلحين من عباده.. وأنتم لم تصلحوا سوى ثمانين سنة زمان الأنبياء.. وأفسدتم في بقية الأربعمئة سنة كلها.
- لسنا في جدل تاريخي يا سيدي.. إننا اليوم أتينا نمد لكم يد العون.. نرد لكم الجميل.. فقد استقبلتمونا في أراضيكم لما طردتنا الأمم.. ونحن نملك المال.. وأنتم في أمس الحاجة إليه.. وكل ما نطلبه أرض بسيطة لن نعدو خارجها.. سنهاجر لها من الأرض كلها ونسكن بها..

- أراضيكم لا حدود لها يا سيدي.. ولن نزاحكم فيها.. فبدلاً من أن نعيش متفرقين بين تلك الأرض وتلك.. اجمعونا في أرض واحدة.
- ومن أنا حتى أبيعك فلسطين.. هل تظنها ملكاً لي؟ أبيع فيها وأشتري متى أشاء؟ إنما هي ملك للأمة الإسلامية العظيمة.. فيها معرج سيدي محمد إلى السماء فكان قاب قوسين أو أدنى.. وإليها كانت قبلتنا.. اذهب إلى الشعب المسلم فرداً فرداً واقتني به شاهداً لك ونصيراً.. وسأبيعك إياها.
- سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية.. وسنقيم لكم في أوروبا سداً منيعاً ضد آسيا.. وسنبني حضارة ضد التخلف.
- لقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ورووها بدمائهم الغالية.. فلتحفظوا بملايينكم.. إذا مزقت دولتي يمكنك عندها أن تأخذ فلسطين بلا مقابل.. لكني لا أوافق على تشريع جثتي وأنا على قيد الحياة.. ولئن استمريتكم في حماقتكم هذه لأطردن منها كل يهودي ولأنفينكم إلى حيث تنهش الأمم في لحومكم.
- تحول قناع "ماستيم" المرعب إلى ملامح غاضبة.. ولكن "هرتزل" أعطى السلطان ابتسامة على الطراز الصهيوني.. وسلم عليه وخرج مهزوماً.. لقد حاول إغراء السلطان بالمال.. لكنه عرف معدن "عبد الحميد الثاني" جيداً.. ليس له إلا حل واحد نطقه بنفسه.. لن يعبر اليهود إلى فلسطين إلا على أشلائه.. وخرج "هرتزل" من القصر العثماني وطار "ماستيم" فوقه لا يفارقه.
- منذ سنوات من هذه الواقعة كان "هرتزل" يلقي خطبته المريية في مجتمع حكماء صهيون.. وكانت خطته أن يدور الأفعى" سيربنت حول أوروبا فتسقط كل الملكيات فيها ثم تهبط أخيراً في أرض العرب لتسقط الدولة العثمانية.. بعد مؤتمر صهيون هذا نجح الأفعى في إسقاط النظام القيصري الروسي بالثورة الروسية التي أودت بالبلاد إلى حكم شيوعي يهودي.. وها هي الأفعى

"سيربنت" قد هبطت في أرض العرب.. وقد قال "هرتزل" في مؤتمر صهيون إن المنظمة الماسونية هي أداة يجب أن يستخدمها أبناء صهيون في خدمة خطة اليهود في كل زمان ومكان.. طار "ماستيم" وراء "هرتزل" إلى بلد تدعى سالونيك في اليونان العثمانية آنذاك.. وهناك فهم "ماستيم" كل شيء.

رغم أن اليهود الذين ادعوا الإسلام أتباع "ساباتاي" كانوا قد انتشروا في أنحاء الدولة العثمانية كلها إلا أن أكبر تجمع لهم كان في سالونيك اليونانية العثمانية.. وهناك نشط محفل ماسوني إيطالي وبدأ يجمع يهود الدونمة الذين وصلوا إلى مراكز قيادية في الدولة.. وخاصة العسكرية.. جمعهم كلهم وكون بهم جمعية اسمها جمعية الاتحاد والترقي.. وجعل تنظيم الجمعية يماثل التنظيم المتبع في المحافل الماسونية عادة.. وكان للجمعية هدف أساسي واحد.. إسقاط السلطان "عبد الحميد الثاني" بأي ثمن.. وشمرت الآلة الإعلامية اليهودية المعروفة عن سواعدها.. وشمر "ماستيم" عن سواعده وبدت يده لأول مرة.. كان يملك أصابع طويلة وأظافر أطول.. وسواعد تبدو من شدة هزلها وكأنها عظمية وبدأ اليهود في عملهم الذي يجيدونه جيداً منذ بداية الزمان.

كان يبدو وكأن الدنيا كلها انقلبت فوق رأس السلطان "عبد الحميد الثاني".. مارسوا اللعبة المعتادة.. تهيج الشعب على الملك بأخبار زائفة وأحداث مفتعلة تبدو وكأنها من صنعه وليس له فيها ناقة ولا جمل.. فجأة أصبح السلطان طاغياً ومستبداً ومصاص دماء.. وزرعوا في عقول الناس أن الدولة العثمانية يجب أن تتحرر من استبداد الإسلاميين المتعنتين وتتحول إلى دولة متحضرة مثلكا مثل إنجلترا وفرنسا.. قالوا إن السلطان هو عدو للتحضر وأنه يلقي المثقفين من نافذة قصره.. وأنه يرفض الموافقة على العمل بدستور متحضر يماثل دستور الدول المتحضرة ويتمسك بدستور قديم عفى عليه الزمن.. وكل هذا بدعم خرافي من الصحافة ودعم أسطوري من أصحاب المال اليهود.. وانضم للاتحاد والترقي كبار رجال الجيش العثماني.. بل إن وزير المالية في الدولة العثمانية كان

يهودياً.. وقد ساهم طبعا في تطبيق الطريقة اليهودية في التعامل مع الممولين اليهود مما يتيح لهم السيطرة على السوق.. رئيس مكتب الصحافة كان يهودياً.. وكان يفلق كل صحيفة تكتب كلاما لا يخدم الاتحاد والترقي.. كانت حفلة اليهود قد بدأت على الدولة العثمانية.. ولم يكونوا ليرضوا بأقل من تشريحها إلى شرائح لا سبيل إلى إعادتها مرة أخرى.

كان السلطان "عبد الحميد" واضعا قانونا صارما يتعلق بسفر اليهود إلى فلسطين.. فقد فرض على كل يهودي أن يحمل جوازاً أحمر يمنعه تماما من دخول فلسطين.. ويمنعه من شراء أي أرض فيها.. وهاهو التاريخ ينظر معنا ومع "ماستيم" إلى مشهد فرقة من فرق الجيش قد انطلقت من سالونيك لتدخل السلطان عبد الحميد بالقوة الجبرية.. ووصلت القوات إلى اسطنبول.. ودخل إلى السلطان لتسليمه قرار العزل الرسمي أربعة رجال أحدهم كان يهودياً والثلاثة الآخرين ليس فيهم عربي أو عثماني واحد.. بل إن أحدهم أرمني والآخر ألباني والثالث جرجي.. كان "ماستيم" في هذه اللحظة يضحك.. بل كان يقهقه.

تم نفي السلطان إلى سالونيك. بين أحضان اليهود وتم حبسه في أحد البيوت اليهودية هناك لمدة تزيد على الثلاث سنوات.. وكان السلطان يسمع بأذنه هتافات في سالونيك تقول "سقط المستبد فارض الجواز الأحمر الذي حرم اليهود من فلسطين".. كان لا يزال "ماستيم" يضحك بسعادة شيطانية.. وحق له أن يضحك.. فهاهم الاتحاد والترقي قد عينوا للمسلمين خليفة آخر هو "محمد السادس".. كان خليفة صورياً فقط بينما يحكم رجال الاتحاد والترقي اليهود البلاد.. نعم كانت تلك فترة من فترات الدنيا حكم فيها اليهود خلافة إسلامية واسعة.

أسقط الاتحاد والترقي الجواز الأحمر.. وصار من حق أي يهودي أن يهاجر إلى أي مكان في فلسطين يشاء ويشتري فيها أي أرض أحب.. وارتفعت ديون الدولة العثمانية من ثلاثين مليوناً في عهد "عبد الحميد" إلى أربعمئة مليون.. كما فعلوا

من قبل في أي دولة تمكنوا منها.. وتدفع اليهود من كل مكان إلى فلسطين.. حتى وصل عدد اليهود فيها إلى 85 ألف يهودي.

كان الاتحاد والترقي يعتمدون حكم البلاد بالنزعة القومية التركية.. ويحقرون من شأن العرب الجهلة البدو الرُّحْل باعتبار الجنس التركي هو الجنس الفاتح العظيم الراقى.. وبالتالي قد سمح هذا التوجه العنصري لتوجه عنصري آخر أن يظهر بشكل طبيعي.. ضاق العرب ذرعاً بحكامهم الأتراك الذين يظنون أنفسهم فوق البشر.. وانتعشت في قلوبهم فكرة التحرر بعروبيتهم من حكم هؤلاء.. خاصة وقد بلغت مناصب اليهود في الدولة العثمانية مبلغاً لا يمكن السكوت عنه.. ودخل اليهود فلسطين بعد أن كانوا محرومين.. فكر العرب في التحرر وعمل دولة إسلامية جديدة يحكمها خليفة عربي يعيد لهم مجدهم وعروبيتهم.

كان "ماستيم" الآن في فلسطين.. وتحديدًا في القدس.. يطير فوق الأقصى ويتسم ابتسامة شيطانية صهيونية مخيفة.. لم تكن هذه نهاية الرحلة.. كان "ماستيم" يعلم جيدًا أنها مجرد البداية.. بداية عهد أنتيخريستوس.

تمت
